المقولات المؤسسة لنظرية التلقي ـ تصورات فولفغانغ إيزر

الباحث : عمر عباس خضير

أ.د. جبار عودة بدن

جامعة البصرة- كلية التربيَّة للعلوم الإنسانيَّة - قسم اللغة العربيَّة

ملخص البحث:

ترتكز المقولات المؤسسة لنظرية التلقي على تصورات كل من : (هانز روبرت ياوس) و (فولفغانغ إيزر) تلك التصورات التي قادت لنشوء نظرية التلقي و انطلاقها من مهدها الأول (جامعة كونستانس) في ألمانيا أواخر العقد السادس من القرن المنصرم، و بسبب غموض بعض المفاهيم التي طرحتها هذه النظرية و وقوع بعض الكتّاب العرب في الفهم الخاطئ لمقولاتها نعرض تصورات إيزر معتمدين في تحليلها و تفكيك عُقد الغموض و فك الاشتباكات وصولاً لفهم أدق و أصوب على إجراءات نقد النقد و الممارسة النقدية المقارنة المؤسسة على عرض تصورات إيزر في أعماله النقدية التي ترجمت إلى العربية ترجمة رصينة و العود ــ حين الحاجة ــ إلى الأصل الفينومينولوجي للمفاهيم لفك الالتباس .

الكلمات المفتاحية : المقولات المؤسسة، نظرية التلقي، فولفغانغ إيزر، القارئ الضمني، السجل النصي.

Foundational Sayings of Reception Theory –WolfgangKaiser's Perceptions

Researcher : Omar Abbas Khudair

Prof. Dr. Jabbar Oda Bidan

Dept. of Arabic, College of Education for Human Sciences, University of Basrah

Abstract:

The founding statements of the theory of reception are based on the perceptions of: (Hans Robert Jauss) and (Wolfgang Kaiser), those perceptions that led to the emergence of the theory of reception and its launch from its first cradle (University of Constance) in Germany in the late sixth decade of the last century. Because of the ambiguity of some of the concepts presented by this theory and the fall of some Arab writers into the misunderstanding of its statements, we present Kaiser's perceptions, relying on its analysis, dismantling the knots of ambiguity and dismantling the clashes, in order to reach a more accurate and correct understanding of the procedures of criticism and critical practice. Kaiser's critical works were translated into Arabic with a sober and accurate translation, and a return when needed to the phenomenological origin of the concepts to resolve the confusion.

Keywords: Foundational Sayings, Reception Theory, Wolfgang Kaiser, Implicit Reader, Text log .

المقدمة

تأثرت تصورات إيزر بالمشروع الفينومينولوجي لإنغاردن و لا سيما في معالجته للظاهرة الأدبية، المشروع الذي اعتمد أساسيات منها : تقسيم الموضوعات إلى (الموضوع الواقعي أو الطبيعي، الموضوع القصدي، الأفكار) ، و تكوّن العمل الأدبي من أربع طبقات هي (طبقة صوتيات الكلمات، طبقة وحدات المعنى، طبقة الوحدات المتمثلة، طبقة المظاهر التخطيطية)[١] ، و تفريقه بين البنية الأنطولوجية للعمل الأدبي و التي يمكن التعبير عنها بالجانب النصي الثابت و البنية الجمالية المتعلقة بأفعال التلقي بوصفها وسائل لبناء المعنى، و سنلاحظ على امتداد مساحة عرضنا لتصورات إيزر هذا التأثر الواضح بإنغاردن .

و لأجل وضع الفصل المجابه للاختلاط في إدراك المفاهيم موضعه لا بد من توضيح بعض الأساسيات في متبنيات إيزر، **أولها** أن نظرية التلقي معنية برصد إنتاج المعنى لا المعنى، على خلاف النظريات و المناهج المعنية بملاحقة المعنى، و ينتج عن هذا معرفتنا بأن هذه النظرية تعالج عملية بناء المعنى بوصفها تجربة يعيشها القارئ على غرار تجربة الذات مع العالم كمعيش بحسب التصور الفينومينولوجي[٢]، و هو ما دعا لضرورة فهم المعنى ــ في سيرورة تشكله ــ صورياً أو على شكل جشتالتات تزيح بعضها البعض الآخر و تؤثر في صياغة المعنى في صورته النهائية، صور غير ممنوحة بشكل قبلي بل مشكلة بفعل التلقي المستند على علاقة القارئ بالعمل الأدبي، و بعبارة أخرى (صور معيشة)، الأمر الذي سيقود إلى التركيز على فعل التلقي و الابتعاد عن المنهج القائم على تتبع الحيثيات النصية خارج تصور علاقة مع القارئ و المنهج القائم على رصد الطبيعة السيكولوجية للملتقي خارج علاقته مع النص، فإذا كان ((النص لا يشكل أو يصوغ معناه بنفسه))[٣]فإن القارئ لا يشكل المعنى إلا حين يعيش تجربته مع النص، و **ثانيها** أننا خلال ملاحظتنا لعملية إنتاج المعنى يجب أن نفرق بين ممنوحات النص و ممنوحات القارئ، على أن لا يؤدي هذا التفريق إلى نفي العلاقة الدائمة القائمة بين النص و القارئ، و مكمن أهمية هذا التفريق متأتية من مركزية مفهوم (الإدراك) في عملية الفهم لمعرفة دور كل من النص بوصفه موضوعاً و القارئ كذات في تحققه، مركزية تتضح في تمييز إنغاردن بين البنية الأنطولوجية للعمل الأدبي و البنية الجمالية[٤]، و **ثالثها** أن المعنى إنما يُنتج داخل وعي القارئ، و لكي يحصل هذا لا بد من التأكيد على حضور القارئ داخل النص، و بهذا التصور يمكن فهم العلاقة بين العمل الأدبي و قارئه، و لا مجال للحديث عن تموضع لفعل إنتاج المعنى خارج الوعي كذلك لا مجال أيضاً للقول بإمكانية تحقق العلاقة بينهما مع افتراض موقع آخر للقارئ خارج النص، و هذا هو معنى القول بأن الموضوع الجمالي ــ كنتيجة لفعل القراءة ــ إنما ((يتم إدراكه من الداخل))[٥]، و **رابعها** إن كل ما يجري الحديث عنه بخصوص ذاتية الذات لا يعني ــ من وجهة نظر إيزر ــ الشكل الإسقاطي للذاتية التي تسلب الموضوع حضوره، كما لا تعني الموضوعية أي صورة إجبارية تغيب الذات في فعالية الإدراك[٦]، و **خامسها** أن السمة الرئيسة لإدراك العمل الأدبي هي الجريان، بمعنى أن النص لا يمنح نفسه من أول وهلة، و لذلك فإن أدق وصف للقراءة ــ ضمن هذا الإطار ــ هي السيرورة[٧]، و **سادسها** أن إيزر لم يكن معنياً بوصف قارئ حقيقي في فعل قراءة حقيقية متحققة في تاريخ ما، بل عُني بوصف الإمكانات

التي تؤهل لحدوث فعل القراءة في طرفيها النص و القارئ[٨]، على أن هذا لا يعني نفيه لوجود القارئ الحقيقي و لا الارتباطات الواقعية في عملية التلقي التي عرضها في أكثر من موضع .

توزعت تصورات إيزر في اتجاهات متعددة داخل الاهتمام الموصوف بجمالية التأثير، فمنها ما اتجهت صوب إنتاج المعنى في إطار العلاقة التفاعلية بين النص و القارئ، و منها ما تكفل بالتنظير للقارئ و كيفيات حضوره في النص كمفهوم متعالٍ و مؤطر بعلاقة تفترضها بنية النص كممكن غير مشروط بكينونة تاريخية، و منها ما توجه نحو الكيفيات التي تؤهل النص لتحقيق العلاقة مع القارئ، و تضمن إيجاد المشتركات التي تربطه مع القارئ الواقعي المرهون بأبعاد تاريخه، عبر بعدين أحدهما يربط النص بالواقع و الآخر يربطه بالقارئ، و منها ما عُنيت ببيان طبيعة القراءة و وصف البنية المركبة لها لفهم كيف يمكن للنص أن يوجه القارئ في حدود معطياته الموضوعية، و منها ما شغل الجانب الآخر لتصور العلاقة بين النص و القارئ، إذ تتسم تلك العلاقة بطبيعة تأثيرية متبادلة، و هذا يعني أن التأثير يمتد ليغير القارئ بعد القراءة مما يمكن الاصطلاح عليه ببناء القارئ .

بعد هذه الملاحظات المهمة يمكننا عرض تصورات إيزر و أداوته الإجرائية، التي تداخلت هي الأخرى مع بعضها حالها حال تصورات ياوس و أداوته الإجرائية، مطمئنين لتوفير شرح ملائم مسبق في حدود الموجز أعلاه .

إنتاج المعنى .. و العلاقة التفاعلية بين القارئ و النص

في تلقي أي عمل أدبي يتمركز فاعلان هما النص و القارئ، لكنهما فاعلان غير مصرح بوجودهما خارج فعل التلقي، بمعنى أنه لا وجود لقارئ إلا حين يقرأ و لا وجود لنص إلا حين يُقرأ الأمر الذي يفرض فاعلاً آخر على مشهد التلقي، هذا الفاعل الثالث هو العلاقة بين القارئ و النص، و الذي لا يمكن دونه تحقق القراءة، إنها المسألة الوجودية نفسها في صيغتها النقدية هذه المرة، أعني مسألة الذات / الموضوع التي فرغت من إثباتها الفينومينولوجيا عبر علاقة تفاعلية تربطهما معاً و يستحيل بانقطاعها أي تصور لوجود أحدهما[٩] .

يتميز النص ببنية ثابتة يرتبط بها الجانب الموضوعي في القراءة، تلك هي البنية اللغوية المطلة من خلال العلاقات النحوية و البنية الصوتية و غيرها من عناصر النص الثابتة التي لا يمكن التلاعب بها و لا إعادة صياغتها، لكن مثل هذه البنية الثابتة تتسم بالقابلية الدلالية، تلك القابلية التي تجعل المعنى غير متناهٍ، و يختلف من قارئ إلى آخر، إن ما يمكن اختزاله بالعناصر الجمالية داخل النص و المحمولة في البنية اللغوية هي الفاعل الرئيس الذي يقلق العناصر الثابتة في النص، كما أن الإقرار بوجود علاقة تواصلية بين النص و قارئه تفرض وجود مرجعيات يعتمدها النص و يقصدها ليحقق أولى خطوات التواصل، و مثل هذه المرجعيات لا تكون واقعية لأن عالم النص لا ينتمي للواقع و لا يُطالب بعكس الواقع كما هو، إن لهذه المرجعيات طبيعة خاصة متأتية من طبيعة الموضوع القصدي في التصور الفينومينولوجي لإنغاردن، و عليه

مجلة آداب البصرة للعلوم الإنسانية
العدد ٢ – المجلد ٤٧ – حزيران لسنة ٢٠٢٢

فإن هذه المرجعيات ستُحدد داخل عملية القراءة، و إن القول بتوافرها في النص لا يعني أن يكون وجودها سابقاً لعملية القراءة[١٠] .

و إذا كان النص يحمل صيغة ثابتة يمكن الجنوح إليها كضابط أساس للحيلولة دون الاعتباطية و الإفراط في التأويل، بنية تفرض شروط تلقيها و ترسم خارطة لارتيادها، فإن المتلقي هو الآخر على الرغم من ذاتيته و على الرغم من كونه الطرف الممثل للذات ينتمي لمجموعة مرجعيات ثقافية و اجتماعية سبق و فرضت معاييرها عليه، و على الرغم من فاعليته في عملية التلقي سيبقى جزء كبير من سلوكياته داخل القراءة رهناً لقبوله بتلك المعايير، التي يحاول العمل الأدبي كسرها و تغيير قناعات القارئ بها[١١]، و على الرغم من كل ما يمتلكه النص من عناصر توجيه و تحديد تحفظ للقراءة موضوعيتها فإن القارئ هو الفاعل في تحديد الكثير من الفعاليات التي تؤسس للمعنى بنيته الكلية كفعاليات الانتقاء و التأويل الاستبعادي و تشكيل الجشتالتات و التحرك ضمن محاور الاستبدال، و غيرها من الفعاليات التأويلية و التي تنضوي تحت عنوانها العام (الفهم)[١٢] و الذي يحيل بشكل مباشر إلى الإدراك الذي و إن كان إدراكاً بموضوع ما فهو نابع من ذات واعية .

إن كلاً من النص و القارئ يمنح ما لديه في فعل القراءة لا بشكل مستقل و لا بطريقة السير باتجاه واحد و لا بتصور ما للنص على حدة و ما للقارئ على حدة، نعم لا بد من التمييز بين ما للنص و ما للقارئ لكن كل ذلك يحدث داخل تصور علاقة تفاعلية تبادلية تسير باتجاهين هما النص و القارئ في آن واحد، و تغذي بفضل فاعليتها سيرورة القراءة بما يلزم لاستمرارها، و لعل من أسياسيات وظيفة هذه العلاقة التداخلية هي تحقيق تموضع القارئ داخل النص و تموضع النص داخل وعي القارئ، و هذا يعني أن علينا أن لا نتصور هذه العلاقة كحيز ممتد بين القارئ و النص بل حيز ضام و متداخل مع فاعليه[١٣] .

و إذا كان كل ذلك ممكناً بحسب فروض إيزر فإن القراءة تبشر ببُعد و وظيفة أكبر من كونها عملية لتلقي عمل أدبي ما أو إنتاج معنى نص ما، فهي قادرة على إعادة بناء القارئ، فكل قراءة نخرج منها و نحن مختلفون عن اللحظة السابقة لها[١٤] .

و لوصف هذه التعالقات بين القارئ و النص و ما يحيطهما، أسس إيزر عدداً من الأدوات الإجرائية الوصفية التي ستفد على مسرح هذه الصفحات تباعاً حسب توطيناتها النظرية، التي يبدو أن أولها حضوراً ـــ هنا ـــ ما يتأسس على إدراكنا لنوعين من العلاقة: **الأول** علاقة القارئ بالنص، تلك العلاقة التي لها من العمق ما يكفي لتصوره القول بأن القارئ لا يطفو على سطح النص و لا يلامسه عن بُعد بل يعيش داخله و يشعر بتجربته معه لا بالمعنى المعجمي للمعية بل يتماهى فيه تماماً، و ستكون الأداة الإجرائية لهذه العلاقة (القارئ الضمني)، و **الثاني** علاقة النصوص بالعالم الواقعي، فحتى مع اختلاف الموضوع القصدي عن الموضوع الطبيعي تبقى الوشائج قائمة و مستمرة بين عالمي النص و الواقع، ثم أن القول بالتلقي هو قول بتحقق هذا الفعل تاريخياً لا فرضياً فحسب، و معه تلح الحاجة لابتكار أداة إجرائية تصف كيفية اشتغال

مجلة آداب البصرة للعلوم الإنسانية
العدد ٢ – المجلد ٤٧ – حزيران لسنة ٢٠٢٢

النصوص مع استحضار هذه العلاقة، و ستكون أداتها الإجرائية المبتكرة على يدي إيزر(النموذج الوظيفي التاريخي) .

القارئ الضمني

يستثمر إيزر مفهوم (المؤلف الضمني) لـــــ (وين بوث)[١٥] لطرح مفهومه هذا[١٦]، و يعتمد في بداية إيضاحه له على مناقشة أنواع القرّاء الآخرين الذين طرحتهم منظومات نقدية أخرى كـــــ :

١- القارئ المعاصر: و هو قارئ حقيقي يطلق حكمه على عمل أدبي ما، و من خلاله يمكن قياس ردود أفعال الجمهور[١٧]، إن مثل هذا القارئ هو من نجده في معالجة ياوس الخاصة ببناء أفق التوقع، و بسبب الاختلاف في زاوية التعاطي بين جمالية التلقي و جمالية التأثير لا يمكن اعتماد مثل هذا النوع في الكشف عن العلاقة بين النص و القارئ، لأن الأولى تتناول فعل التلقي من زاوية حدوثه تاريخياً و بشكل واقعي، أما الثانية فتتناول الممكنات كفرضيات دالة على قابليات النص و قابليات القارئ في علاقة داخل النص و في وعي القارئ .

٢- القارئ المثالي[١٨]: تجسيد مثالي ممتنع عن التحقق واقعياً، لأن فرضية حدوثه قائمة على مطابقة قراءته مع مقاصد المؤلف، و الوصول إلى مكامن النص الدلالية كافة[١٩] .

٣- القارئ الأعلى: و يقصد به مؤسسه (ريفاتير) مجموعة من القرّاء الذين يتموضعون داخل بؤر النص لتكون وظيفتهم كشف النمط الأسلوبي له، و هو ما يجعل مثل هذا القارئ خارج بُعد بناء المعنى المرتكز على القارئ و النص و العلاقة بينهما لأنه يقتصر وظيفياً على الجانب الأسلوبي[٢٠] .

٤- القارئ المُخبَر: يرتكز هذا المفهوم على مبدئيات النحو التوليدي التحويلي، و تتعلق وظيفته في بيان فاعلية البنية السطحية في تأسيس الدلالة، و بفضلها سيتمكن القارئ من ملاحظة الأخطاء المتكررة التي يقع فيها أثناء سيرورة القراءة في الوصول إلى البنية العميقة، و أنه يمكن من خلال هذه الملاحظة المتكررة بناء المعنى، و تكمن مشكلة هذا النموذج في أنه بتأسيسه بناء المعنى على هذه الملاحظة يسقط فعل إحالة البنية السطحية على البنية العميقة من الاعتبار و يوقع القارئ في فخ تضليل الاستراتيجيات النصية، كما أنه يعاني من مشكلة أخرى تتضح في قول مؤسسه (ستانلي فيش): ((إنه إذا ما نظرنا إلى المسألة بطريقة غريبة و مشوشة ــ كما هو الحال بالنسبة للمنظرين ــ فإن هذا المفهوم منهج يعالج مستعمله الخاص . هذا المستعمل الذي هو أيضاً الأداة الوحيدة لهذا المفهوم . و المفهوم شاحذ ذاتي و ماذا يشحذ ؟ إنه يشحذك أنت، و بإيجاز، فهو لا ينظم المواد بل الأذهان))[٢١] إذ يتضح من خلاله أن المفهوم متعلق بالقارئ لا بالنص .

٥- القارئ المقصود: يفترض (إرفين فولف) مؤسس هذا المفهوم أنه يمكن التعرف على القارئ الذي قصده مؤلف العمل و توجه إليه[٢٢]، و مثل هذا التعرف سيسهم في تحديد المعنى و فهم الاستراتيجيات التي اتبعها المؤلف في إحداث التأثير على القارئ، و مع كل ما يمنحه هذا القارئ إلا أنه لا يمثل إلا جزءاً من

مجلة آداب البصرة للعلوم الإنسانية
العدد ٢ – المجلد ٤٧ – حزيران لسنة ٢٠٢٢

استراتيجيات النص المقصودة من طرف المؤلف و لا يمكن حصر إنتاج المعنى به فضلاً عن أن محدودية هذا المفهوم لا توفر لنا وصفاً دقيقاً شاملاً لحيثيات العلاقة بين النص و القارئ .

إن سبب العجز في النماذج السابقة للقارئ الضمني ــ بحسب تصور إيزر ــ يرجع إلى: تصور دور القارئ بإزاء المعنى لا إنتاج المعنى، أو تصوره كمفهوم واقعي و هذا يعني أنه استُنبط من حادثة أو مجموعة حوادث قرائية منجزة و هو ما يدفع باتجاه الاستفهام عن ما لم يتحقق منها و من ثم كم نوعاً من القراء يمكن أن تفترضه الإنجازات القرائية التالية ؟ بينما يتعلق الأمر بدقة في تصورنا للممكن من القراء لا الكائن منهم و هو ما لا نستطيع افتراضه إلا عبر التعاطي مع النص كإمكانيات لا قراءات متحققة، و يكمن سبب آخر من أسباب العجز في التعامل مع القارئ ضمن ثنائية القارئ / النص بعيداً عن تصور العلاقة التفاعلية بينهما بهذه الصورة التي أسست لها المنظومة الفينومينولوجية، كما أن تصور النص قبل تحقق قراءته و إن جرى اعتماده في بعض هؤلاء القراء إلا أنه كان يعاني من عطب إما في اقتصار مهمته على جانب من الجوانب النصية أو في عدم إمكان تحققه على المستوى الوظيفي، إذ حتى مع كون القارئ الضمني بنية نصية لا تاريخية و لا يمكن مقارنته مع قارئ واقعي لكنه يمكننا من وصف كيفية تلقي نص من قارئ واقعي، بواسطة الكشف عن أبعاد العلاقة التي تربطهما و بيان عناصر التأثير التي يحملها النص في خطاطته و التي تمهد النقاط التي سيتموضع فيها القارئ[٢٣]، و باستعارة الأسلوب الفينومينولوجي يمكننا القول أن التمييز بين البنية الأنطولوجية للعمل الأدبي و أفعال التحقق (تحقق القراءة) أهّل إيزر لابتكار هذا المفهوم الذي يوضح دور النص في بنيته الأنطولوجية في تحديد ملامح هذا القارئ و ما ينتظره منه و كيفيات التحقق كأفعال قراءة و التي تتأثر بالممنوح الأنطولوجي في النص، و دور القارئ كذات واعية مدركة في التعامل مع البعد الأنطولوجي و تمثيل أفعال القراءة على نحو تفاعلي .

و نتيجة لما تقدم يمكن حصر وظيفة القارئ الضمني ضمن الآتي :

١- إن الكينونة المتعالية لمفهوم القارئ الضمني توازي البعد الأنطولوجي للعمل الأدبي، ذلك البعد غير القابل للاستنفاد مع تعدد القراءات المتحققة، و تستثمره ــ أي البعد الأنطولوجي ــ لا في وصفه هو فقط ــ من زاوية حضور قارئه ــ بل في وصف فعاليات إنتاج المعنى من خلاله، و هو ما يمنح القارئ الضمني سمة المرجعية بإزاء القراءات الفعلية المتحققة، بمعنى آخر فإن الناتج الوصفي لفاعلية القارئ الضمني يمكن مقارنة القراءات الفعلية به، فما دام هذا المفهوم يصف إنتاج المعنى المحتمل بالاعتماد على النص، فهو قادر على وصف التحقق الفعلي في أية قراءة بفعل المقارنة بينهما، لذلك يصح القول بأن كل قراءة لنص هي ((استثمار خاص لبنية القارئ الضمني))[٢٤].

٢- و بالنظر إلى الموضع المتوسط للقارئ الضمني بين البنية النصية و أفعال القراءة، و اشتغاله ضمن هذين البعدين لإنتاج المعنى يصبح الوسيط الذي يمكن الاطمئنان إلى نواتجه الوصفية المطابقة لرؤية نظرية

مجلة آداب البصرة للعلوم الإنسانية
العدد ٢ - المجلد ٤٧ - حزيران لسنة ٢٠٢٢

التلقي الأساسية التي ترى إنتاج المعنى نتيجة لعاملين: هما النص و المتلقي في علاقة تفاعلية، أي أنه بالضبط في المكان الافتراضي الذي تحدث فيه فعالية إنتاج المعنى .

النموذج الوظيفي التاريخي

بعد توظيف إيزر مفهوم القارئ الضمني لإبراز البعد المتعالي لعلاقة النص/القارئ في تشعباتها الإمكانية، يجنح هذه المرة نحو البعد التاريخي لهذه العلاقة لإبانة البعد الواقعي في تصوراته الحدثية، أي أنه هذه المرة سيعمد إلى وصف ما يحدث و يؤثر في التلقي من منظور تعلق النص بالواقع و تعلقه بالقارئ، ذلك أن كل تصور لفرضية التلقي في الواقع تحتمل توجه النص و القارئ و العلاقة بينهما إلى وجهتين هما :

١- النص في علاقته بالواقع: و لتغطية مساحة هذا التوجه يعتمد إيزر على مفهومه الإجرائي (السجل النصي) .
٢- النص في علاقته بالقارئ: و يتكفل بكشف حيثياته مفهوم (الاستراتيجيات النصية) .

إن سبب توجه إيزر إلى البعد التاريخي يعود إلى الأساس الفلسفي للنظرية، إذ يمتنع تصور حدوث التلقي أو وجود أحد طرفيه و العلاقة بينهما بانتفاء أحدهم[٢٥]، و مع التسليم بهذا الأساس لا يمكن تأسيس بنية التلقي على الفروض فقط، حيث لن يكون لهذا الجهد التأسيسي أية قيمة، لأن التلقي يحدث في الواقع التاريخي و يمارس النص تأثيره واقعياً على القارئ، كما أن القارئ يقرأ نصاً له وجود عيني في التاريخ و يمارس مهامه في تلقيه بشكل واقعي أيضاً، و من الخطأ الاقتصار على أحد البعدين في عملية التلقي، البعد المتعالي الذي يحدثنا عن إمكانات لا محدودة يكتنزها النص و القارئ كشفت الملاحظات التحليلية المستندة لوقائع القراءات المختلفة جزءاً بسيطاً منها و بقي جزء مفتوح الأفق تحاول الأدوات الإجرائية لإيزر كشفها من خلال مزاولة التلقي كفرضيات تستند لإمكانات النص و قابليات القارئ و ما ينشأ من علاقة بينهما، و البعد الواقعي الذي إن أغفلناه سنكون بإزاء التصريح بنظرية متعالية على الواقع تتحدث عن أشياء لن تجد طريقها إلى الواقع المعاش .

١- **السجل النصي**[٢٦]

يصلح أن نفتتح حديثنا عن هذا المفهوم باقتباسين مهمين يصرح فيهما إيزر بأن النص: ((يقول لنا شيئاً ما عن الواقع))[٢٧] و بأنه ((يحمل للعالم شيئاً لم يكن موجوداً من قبل))[٢٨]، إذ من خلالهما نفهم بأن النص يرتبط بالواقع و لا ينفصل عنه، كما أنه يحمل للعالم تجارب لم تكن معهودة في تاريخه، و لأنه لا ينفصل عن العالم و يحمل رسائله إليه فلا ريب من بينية تواصلية تربطهما، و بطبيعة الحال فإن النص إنما تتجسد رسائله إلى العالم من خلال القارئ، فالنص لا يخاطب العالم بنفسه و لا من خلاله بشكل مباشر، و إذا كان المعنى يُبنى من خلال القارئ في فعالية القراءة و يختلف من قارئ إلى آخر بسبب اختلاف قابلياته و طبيعة البنية النصية و وسائلها في التأثير و التعبير و منها الفراغات فإن وظيفة النص تقتصر في توفير هذه

الفراغات لا في تحديدها بشكل نهائي لتكون وظيفة ملء هذه الفراغات على عاتق القارئ و الأمر نفسه في النظر إلى علاقة النص بالواقع و علاقته بالقارئ، فإن المضمون الواقعي لتلك العلاقة خارج اهتمام النظرية، فالنظرية لا ترصد إحصائياً جزئيات العلاقات المتحققة من قراءة النصوص بل تصف بنية هذه العلاقة في طورها الواقعي و تؤسس لها ليتم الاستئناس بنتائجها كيفما اقتضت الحاجة .

مالذي ينتج عن تعريف السجل النصي بأنه ((المنطقة المألوفة التي يلتقي فيها النص و القارئ من أجل الشروع في التواصل))[٢٩]؟ مؤكد القول بوجود منطقة مألوفة لكن كيف؟ إن النص هنا يعبر في رسالته عن رأيه في أشياء لها وجود في الواقع، و لأنه نص أدبي فالمنطقة المألوفة بينه و بين القارئ ستتمثل في أمرين سابقين على النص :

أ- المعايير الأدبية المألوفة من قبل المتلقين، و التي يحرص النص على ضمها في بنيته ليحظى بدرجة قبول تمكنه من توريط القارئ في فعل القراءة .
ب- المعايير غيرالأدبية، كالمعايير الاجتماعية و الثقافية و كل ما هو مندرج تحت عنوان السياق التاريخي .

بذلك يبدأ الشروع في التواصل بين النص و القارئ، لكن هل تحتفظ هذه المألوفية بلياقتها في المراحل اللاحقة على الشروع في التواصل؟ إذا كانت الإجابة نعم فمالذي يغري القارئ في نص مألوف إلى هذه الدرجة؟! إنه و بلا ريب ستجري الكثير من التعديلات و التحريفات على هذه المعايير، بل إنه لمن غير الصحيح أن نتصور بدءاً أن استخدام النص لهذه المعايير سيكون حرفياً و مطابقاً تماماً، إن الانحراف بهذه المعايير و تغيير ملامحها هي اللعبة التي يمارسها النص لتكون الشرط الأساس لحدوث التواصل و ديمومته[٣٠]. إن كلا من النص و الواقع يعتمدان تقنية في التعبير و الحضور تتعكز على جانبين الجانب المصرح به و الجانب المضمر، فأشياء الواقع دائماً ما تضمر ماهياتها خلف ظواهرها بل و تضمر أجزاء مهمة من ظواهرها مستغلة قصور المنظور و محدوديته، و كل نسق من أنساق الواقع يضمر الكثير تحت أبنيته، و هذا الأمر ينطبق على النص و ما يضمره تحت بنيته السطحية و في عالمه الغامض، و يبدو أن السلوك التقني هذا ينطبق هنا في تحريف أنساق الواقع داخل النص و معارضتها بهذه الطريقة غير الصريحة، إن ما يعرضه النص هو الواجهة الخلفية للنسق و التي أسس عليها لعبة حضوره بإخفائها و تغييبها عن مشهد الوجاهة كما أن طريقة العرض لن تكون صريحة بل محرفة و مشفرة أيضاً .

الآن يمكننا تصور تفوق النص على الواقع في قدرته على تنظيم الأنساق المختلفة المتباعدة في الواقع تنظيماً أفقياً داخله ، ليقدم للقارئ تجربة معايشتها، لكن السؤال الملح هو كيف تمكن النص من تنظيم هذه الأنساق و المعايير المختلفة؟ إن أقصر و أوضح إجابة على هذا السؤال تتمثل في مبدأ (التشويه المتجانس)[٣١]، فالنص لديه أسلوبه في تنظيم هذه الأنساق التي شوهها بشكل يجعلها متجانسة في عرضه لها، و يجب أن نؤكد هنا المبدأ الأساس في نظرية التلقي و القاضي بأن كل ما يمارسه النص مرهون بالقراءة و المتلقي فلا شيء معطى بشكل كامل دون الحاجة إلى فعل التلقي .

مجلة آداب البصرة للعلوم الإنسانية
العدد ٢ - المجلد ٤٧ - حزيران لسنة ٢٠٢٢

٢ – **الاستراتيجيات النصية**[٣٢]

إن كل ما تقدم في السجل النصي إنما هو تنظيم للعلاقة بين النص و الواقع، فالعمليات التي جرت ضمن نطاقه نتج عنها ربط الأنساق الواقعية بالنص و إدخالها ــ بالطريقة التي وضحناها ــ إلى النص لعرضها على القارئ، لكن كيف يتم ترتيبها لتصل هذه المرة إلى القارئ ؟ و ما هي الطرائق التي يتوخاها النص في إيصال مضمونها إلى القارئ ؟

إن عناصر السجل النصي تحتاج آلية لتنظم وجودها داخل النص و عرضها على القارئ لتحقيق التواصل مع النص، و المسؤول عن هذا كله هي الاستراتيجيات النصية، فهي التي تنظم عملية توزيعها داخل النص، و هي التي ((تقيم العلاقة بين السياق المرجعي للسجل النصي و بين القارئ المدعو لتحقيق نسق التوافقات النصية))[٣٣]و في هذا إشارة واضحة إلى دور القارئ في تحقيق نسق متوافق تتوافر بنيته في النص بفعل الاستراتيجيات النصية لكنها بنية مولدة مفتوحة على تحقيقات القارئ و دوره في صياغة النسق الملائم لظروف تلقيه، نفهم من ذلك أن وظيفة الاستراتيجيات النصية تنظيم مواد السجل النصي داخل النص و صياغة ظروف التواصل بينها و بين القارئ[٣٤] .

إن لهذه الاستراتيجيات بنيتين رئيستين هما :

أ– **بنية الواجهة الأمامية / الواجهة الخلفية** : تتولى هذه البنية مهمة تنظيم العلاقة بين عناصر السجل النصي و الواجهة الخلفية التي انتقيت منها، و منه نفهم بأن النسق المنتقى أصبح عنصراً من عناصر السجل و أن دخوله إلى النص و انتظامه في بنيته سيعرضه لفعل التلقي و بتعرضه لهذا الفعل سيُحيل إلى واجهته التي أتى منها و أن طريقة وجوده و تموقعه داخل النص تقع على عاتق هذه البنية من بنيات الاستراتيجيات النصية[٣٥]، و بالعودة لما قلناه من أن النص ــ ضمن فاعلية السجل النصي ــ سينتقي الواجهة الخلفية للنسق أو المضمر فيه و يعرضها للتحريف فإن هذه الواجهة ستنتقل كواجهة أمامية في النص و تحيل إلى الواجهة الخلفية بفعل التلقي، و بهذه الطريقة يرتبط النص بالقارئ من خلال التحريف المنظم لأشياء الواقع و الإحالة على الواقع بطريقة ملتوية و غير مباشرة و لا واضحة، و ما دامت هذه الطريقة متصفة بهذه الصفات فإن للقارئ الدور الفاعل في قياس التعارضات بين الواجهتين مستنداً على فهمه و أهليته لارتياد عالم النص و معايشة هذه العلاقة المتوترة بينهما و ملاحظة متى تحيل الواجهة الأمامية على الخلفية و متى تنتهي الإحالة للعودة إلى النص في فعل واحد غير مجتزأ و لا يسجل لحظات انفصال داخل وعي المتلقي .

ب– **بنية الموضوع / الأفق**[٣٦] : يفهم إيزر الترتيب الداخلي للعمل الأدبي و بالخصوص الروائي منه على صيغة نسق تشكّله المنظورات، هذا النسق و من زاوية الطابع المستل من الكينونة المنظورية يصنع أفقاً يسمح و يتحكم برؤية القارئ، و يحدد إيزر هذه المنظورات بـــــ [٣٧]:

أولاً– منظور السارد

ثانياً– منظور الشخصيات

ثالثاً– منظور الحدث أو الحبكة

رابعاً– منظور القارئ المتخيل .

إن المنظور الواحد من هذه المنظورات له أفقه الذي يتموضع فيه القارئ حال التقائه به، و لأن القارئ لا يمكنه التواجد في كل هذه الآفاق دفعة واحدة و في وقت واحد فإن طبيعة الأفق المجابه للموضوع هنا بنائية، بمعنى أن كل أفق من آفاق المنظورات إنما هي عبارة عن جزء من الأفق العام المتشكل من مجموع آفاق المنظورات، و الحال هذه فإن القارئ سيعدل من تحصيله المضموني مع كل مرحله يتجاوزها في الأفق العام ليشكل الموضوع الجمالي، إن الموضوع الجمالي هو الآخر حصيلة لموضوعات المنظورات، لكن لا على نحو جمعي متتالٍ لأن المعنى يتشكل بفعل تأويلي انتقائي/إقصائي، و المهم في هذا أن الأفق يفتح للقارئ الطريق إلى المعنى و يتحكم بدرجة و طريقة رؤيته للموضوعات التي تشكل الموضوع الجمالي كناتج معنوي .

يبدو من تداخل بنية الأفق/الموضوع في عمليات إنتاج المعنى أن لها وظيفة متعددة الجوانب تتمثل في: تنظيم العلاقة بين عناصر النص وتقديمها بصيغة منسجمة، و ينتج عن ذلك توجيه أفعال الفهم المسؤول عن إنتاج المعنى، أي أن لها وظيفة تُفهم كصيغة سابقة على فعل القراءة أو كمتوفر نصي سابق على التلقي، كما أن لها تداخلاً ناتجاً عن سبقها في البنية النصية في توجيه سلوكيات الفهم و أفعاله .

سيرورة القراءة و بنيتها المفترضة

بعد فراغه من الافتراضات التي تغطي مساحة تصور إنتاج المعنى و العلاقة التفاعلية بين القارئ و النص ببعديها: علاقة القارئ بالنص ذات الطبيعة المتعالية و مفهومها الوظيفي (القارئ الضمني)، و علاقة النصوص بالعالم الواقعي ذات الطابع التاريخي بنموذجها الوظيفي (النموذج الوظيفي التاريخي) و المتفرع إلى: علاقة النص بالواقع التي وظف لها مفهوم (السجل النصي)، و علاقة النص بالقارئ التي وظف لها مفهوم (الاستراتيجيات النصية) ببنيتيها، يشرع إيزر في إعطاء تصوراته عن فعل التلقي عبر تحليل سيرورة القراءة، تحليل يتخذ من المقاربة الفينومينولوجية أساساً له.

إن الحديث عن المعنى و بنائه ــحديث عن الجانب الثابت و الجانب المتحرك في العمل الأدبي، و إذا كانت البنية النصية تمثل الجانب الأول بما تكتنزه من عوامل التحكم في تشييد المعنى فإن الجانب الثاني منه يتمثل في الموضوع الجمالي، هذا الموضوع الذي لا يولد و لا يعيش إلا داخل الوعي[٣٨]، و ما دور البنية النصية هنا إلا توجيه هذا الموضوع عبر الاستراتيجيات النصية التي تحكم علاقة القارئ بالنص، و هذا هو سبب اهتمام إيزر بوصف ما يحدث في الوعي أثناء سيرورة القراءة، و ليفعل هذا استنبط مفهوماً إجرائياً واصفاً أسماه (وجهة النظر الجوالة) .

وجهة النظر الجوالة

ينجم عن مصادقتنا على الافتراض الفينومينولوجي القائل بأن المعنى لا يُدرك دفعة واحدة فهم القراءة كسيرورة، و هذا يعني أن الوعي و هو يدرك الموضوعات داخل فعالية القراءة سيكون متحركاً و منفعلاً بأكثر من اتجاه[٣٩]، و يعتمد التركيب آلية من آلياته، وعلى الرغم من مرحلية عمليات القراءة و ارتداداتها بأكثر من اتجاه فإن هذا التركيب حاله حال الوعي لن يعاني من أية لحظة انقطاع لأن سمة الإدراك الماهوية هي الاستمرار و الجريان و التركيب جزء من فعالياته، و بتأمل فعل القراءة نلاحظ أن ما يجعل القراءة مستمرة هو (التذكر) و (الترقب) المرتبطان زمنياً بالماضي و المستقبل، أي أن الوعي إنما يستطيع ــ في جريانه ــ مواكبة النص و مواصلة التركيب بفعل تذكره لما قرأه القارئ قبل قليل و ما ستسقط عليه عينيه مما يتوقعه، أما لحظة الحاضر فهي قصيرة جداً حيث يحدث الوعي بالموضوع المقصود ليتحول إلى ماضٍ لا بد من الاستمرار في تذكره آنياً أو إعادته إلى الواجهة الأمامية للوعي عند الاصطدام بموضوع آخر يحيل إليه، و على خط التأمل نفسه يمكننا تمثيل فعل الوعي هذا على (الواجهة الخلفية) و (الواجهة الأمامية) لتكون حركة وجهة النظر الجوالة ذات طابعين : طابع زمني و طابع مكاني مجازي[٤٠]، هنا تكتسب وجهة النظر الجوالة أهميتها حيث تنقل القارئ في كل الأبعاد المتحركة لبعدي العمل الأدبي النصي و الجمالي، و تمكنه من مراجعة ناتج كل مرحلة إدراكية تحمل دلالة جمالية هي جزء من الدلالة الكلية ليقرر ــ بحسب المعطيات الأخرى ــ ما إذا كانت هناك حاجة للعودة إلى مرحلة إدراكية سابقة و تعديلها، إنه بالضبط ما يحدث في تركيب صورة جشتالتية من مجموعة صور جشتالتية، إذ يراجع القارئ كل مرحلة تركيب جزئية و يستبعد صورة أو يعدل عليها و هكذا تستمر الحركة حتى نهاية القراءة .

باستعارة مفهوم المنظورات ــ آنف الذكر ــ يمكننا التعرف على تموضع وجهة النظر الجوالة من خلال الآتي :

إن التركيب الجملي المكون من كلمات يقع داخل أفق المنظور الذي يشكله، و إذا مثلنا له بمنظور الشخصيات فإن أفق المنظور هذا سيجري تعديله لاحقاً بفعل اندماجه مع منظورات أخرى كمنظور القارئ المتخيل و منظور الحدث و منظور السارد حسب لحظات القراءة المتتابعة، و ستكون وجهة النظر الجوالة متموضعة في هذا الأفق الذي يمثل مرحلته، لكنها لن تكون مقيدة به و إلا فلا معنى للقول بأنها جوالة، إذ لن تستطيع أداء وظيفتها في الربط بين هذه المنظورات و آفاقها .

القارئ المتأثر

بعد ما تقدم هل يمكننا وصف القارئ بعد إنجازه لفعل القراءة؟ أم أن أمره انقضى مع القارئ الضمني ؟ هل يمكن للتصورات المتقدمة منذ بداية عرضنا لتصورات إيزر أن تقودنا لفهم القارئ الذي تنتجه القراءة ؟ أم أن العلاقة بين القارئ و النص تسير باتجاه واحد من القارئ إلى النص، لنستبعد تأثره بالقراءة و العمل الأدبي ؟

لو عدنا لدلالة العلاقة بين الذات و الموضوع في الفينومينولوجيا لوجدنا المبدئيات الآتية :

١- إبطال ثنائية ذات/موضوع و استبدالها بمعادلة : ذات + موضوع تتوسطهما علاقة إدراك .

٢- تأثير متبادل بين الذات و الموضوع، فالموضوع المُدرَك يؤثر في الذات و يعيد صياغة مسبّقاتها الإدراكية،لدرجة القول: بأن كل إدراك لموضوع تخرج منه الذات مختلفة عن صورتها السابقة على إدراكه .

الأمر الذي أثر على إيزر ليذهب إلى أن الذات القارئة تتأثر بالصيغة نفسها بعد قراءتها للنص و إنجازها لبناء معنى العمل الأدبي، لأن النص إنما هو موضوعها المُدرَك الذي كانت تتشكل معه من جديد مع كل مرحلة حتى إنجاز القراءة(٤١) .

و بالمقارنة بين النص و تجربة القارئ المسبقة فإن النص ــ الذي سبق و أثبتنا أنه يحمل تجارب جديدة لم يُصرح بها الواقع الذي يعيشه القارئ ــ يتفوق عليه من هذه الناحية و يقدم له بطاقة دعوة لخوض تجارب جديدة لا يمكن للواقع أن يقدمها له، إن هذا التفوق يجعل النص مؤثراً، لا لأنه يقدم تجارب جديدة فحسب بل لأنه يعيد تشكيل تجارب الواقع بشكل مختلف ليجعل القارئ معها يعيد نظره في رأيه بها و يزعزع قناعاته المسبقة و يغير معاييره، و مع كل حاجتنا للاحتجاج النظري على هذا فإن أوضح دليل عليه وجداننا و نحن نتذكر كيف غيرتنا الأعمال الأدبية الواحدة تلو الأخرى و كيف أثرت فينا بشكل كبير و حاسم .

لذلك يرى إيزر بأن القارئ المقصود هنا قارئ متأثر أُعيدت صياغة ذاته بفعل سيرورة القراءة المتحركة باتجاهين هما النص و القارئ، و بهذا يكمل إيزر وصفه للقارئ بعد أن أسس له افتراضياً داخل النص من خلال (القارئ الضمني) و حلل مستوياته التفاعلية في علاقته بالنص عبر(الاستراتيجيات النصية) من منظور اشتغال النصوص في وظيفة تاريخية، و كأنه كان يتابعه مرحلياً من افتراضه في بنية نصية قبل القراءة متعالية على التاريخ إلى حدوثه في علاقته بتلك البنية المتصلة بالواقع ثم أخيراً بعد إنجازه القراءة .

فكرة اللا تناظر

يستقي إيزر من هذه الفكرة القائمة على اختلاف النص مع القارئ جوهرياً عوامل التفاعل و شروط التواصل بينهما، إذ يعدها المحفزة لإحداث التواصل و ديمومته و المحركة لتفاعلهما ضمن العلاقة التي أثبتتها تصوراته السابقة، و يستل بعض المفاهيم من الدوائر المعرفية و العلمية ليوظفها في وصف هذه العوامل و الشروط و بيان فاعليتها في تحقيق التواصل و التفاعل بين النص و القارئ، و هي :

١- العَرَضية : البطاقة الشخصية لهذا المفهوم مسجلة باسم علم النفس الاجتماعي، و يفتتح قصده به بأن ثمة صورتان للتواصل: صورة متوقعة يعرف كل طرف من أطراف التواصل تفاصيل العلاقة المنبثقة عنها، و صورة غير متوقعة (عرضية) تفاجئ أطراف العلاقة التواصلية لا في بداية فعل التواصل فحسب بل في كل مرحلة من مراحله، إن منشأ هذه العرضية هي عدم التكافؤ أو اللا تماثل بين الطرفين، و هو ما يجعل

أطراف العلاقة في حركة دائمة لسد مناطق العجز و الاقتراب من التماثل عن طريق الفهم، و كلما احتفظ حيز اللا تماثل بتباعده بين الأطراف كلما زادت وتيرة التفاعل و التواصل[٤٢] .

٢- اللا شيء : يرى (ر. د . لينغ) أن التواصل الاجتماعي لا يعتمد على الفهم المزدوج، أي فهم الذات و الآخر فحسب بل يفتقر دوماً لفهم تلك الصورة التي يرانا عليها الآخرون، لأن مثل هذا الصورة هي التي تحدد سلوكنا التواصلي، لكن المشكلة تكمن في أننا لا يمكننا القطع بمعرفة هذه الصورة على وجه الدقة، تلك الصورة هي ما يدعوها لينغ بـــــ (اللا شيء)، و التي تستفزنا لسد الفراغ و معرفة حقيقتها عبر التواصل، إن استثمار إيزر لهذا المفهوم يتمثل في أننا لا نفهم حقيقة النص، و بانتقالنا في مراحل سيرورة القراءة نعدل تصوراتنا و نحاول سد النقص في تأويلاتنا و هو ما يدعم التواصل و يجعله نشطاً طوال سيرورة القراءة، مع التأكيد على أن هناك فرق واضح بين نموذج التواصل الاجتماعي المحتمل لصورة (وجه لوجه) و نموذج التواصل القرائي الذي لا يتوافر على مثل هذا الاحتمال، و هو ما يعقد من مهمة القارئ[٤٣] .

هذان المفهومان مضافان للفكرة الأصل القائمة على اللا تناظر هما من مهّد الطريق لإيجاد مفهوم (الفراغات) التي تستمد أهميتها التواصلية من كونها ((هي التي تحدث التواصل في عملية القراءة))[٤٤]، و تستفز القارئ لتعبئتها .

٣- أماكن اللا تحديد في تصورات إنغاردن : يوظف إيزر عرضه لآراء إنغاردن في مفهومه (أماكن اللا تحديد) للتمهيد لمفهوم (البياضات) الذي يرى فيه نوعاً آخر مختلفاً من (الفراغات)، و يفتتح عرضه هذا بتمييز إنغاردن بين أنواع الموضوعات و تصنيفها إلى : موضوع طبيعي، موضوع مثالي أو (الأفكار) ، موضوع قصدي، و أن الأعمال الأدبية إنما هي موضوعات قصدية لا تكتسب استقلالية تامة و لا تحديداً مكتملاً[٤٥]، و أنه يرى بأن القيمة الجمالية و الخصائص الميتافيزيقية هما الفراغان الواجب تعبئتهما، كما يؤكد على ثانوية دورها قياساً بالحدث الأول لالتقاء القارئ بالنص و هو ما نعبر عنه بالصدمة الجمالية، كما يذهب إلى ضرورة عدم ملئها بالكامل لأن وجودها عامل من عوامل القيمة الجمالية .

و على الرغم من ثناء إيزر على إنغاردن الذي قوض مفهوم اكتمال العمل الأدبي من خلال مفهومي (أماكن اللا تحديد) و (التحقيق) و ما أعطياه من بعد للتلقي في عملية إنتاج المعنى، إلا أنه انتقد خلوهما من الميزة التواصلية[٤٦]، كما انتقد الطابع الثابت و النمطي لعملية ملء الفراغات التي تتم في مستوى أفقي لا يبعث أي تفاعل داخل آفاق المنظورات و باقي المظاهر الخطاطية للنص و لا يتجاوز هذه الفعالية النمطية ، مضافاً إلى أن المشكلة في تصورات إنغاردن هي أنها تصورات تفهم العلاقة بين النص و القارئ باتجاه واحد يسير من النص إلى القارئ، كما أن فهمه للقيمة الجمالية و الخصائص الميتافيزيقية كعناصر متعالية يستضيء القارئ بها لملء الفراغات غير دقيق، لأن القيمة الجمالية ما هي إلا نتيجة لعملية سد الفراغات، ثم أن ثانوية دور الفراغات بالمقارنة مع الصدمة الجمالية الانفعالية تمثل واجهة أخرى لانتقاد إيزر له، بالإضافة إلى خلو الفراغات من أية وظيفة و اقتصارها على الطابع الإيحائي .

مجلة آداب البصرة للعلوم الإنسانية
العدد ٢ - المجلد ٤٧ - حزيران لسنة ٢٠٢٢

٤- مفهوم البياضات : يفترض إيزر وجود نوع آخر من الفراغات يسميه (البياضات النصية) التي تتميز عن سابقتها (أماكن اللا تحديد) في تموضعها بين المنظورات النصية، هذا التموضع الذي يدفع القارئ لمحاولة نسج بنية دلالية تربط بينها، لأن توسطاتها بين المنظورات التي ترتبط مع بعضها في بناء المعنى يعطيها وظيفة تواصلية من هذه الزاوية[٤٧]، ذلك أن الكلية المنظورية للمنظور الواحد تخلق بين منظور و آخر فاصلاً تغطيه البنية الدلالية الكلية لهذه البياضات و التي يؤسسها القارئ تباعاً، إن هذه البنية الدلالية المفترضة للبياضات تصرح بأن وجود البياضات المؤسسة عليها ما هي إلا مناطق لصمت النص كي يعطي للقارئ إشعاراً بأن ثمة علاقات يمكن تأسيسها بين أجزاء النص التي تتوسطها تلك البياضات و تربط بينها أفعال القارئ ضمن عملية بناء المعنى .

إن هذه التموضعات المتعددة للبياضات و وظائفها التواصلية الترابطية بين أجزاء النص تجعل من عملية ملئها تنتج الدلالة الكلية بصورة متسقة، و غير خفي بأن عدد البياضات في علاقة طردية مع تعقيد مهمة القارئ و صعوبة تركيبه للدلالة، فكلما زادت تعقدت مهمة القارئ، لأن أهم وظيفة لهذه البياضات هي الصياغة الدلالية في مراحلها المختلفة .

إن من طبيعة هذه البياضات السمة التفاعلية، إذ تتيح عملية تعبئة البياض اللاحق إمكانية مراجعة القارئ لعملية تعبئة البياض السابق و هكذا حتى تكتمل عملية ملء آخر بياض، فآخر عملية يمكن أن تعيد عملية تعبئة الفراغات من السابق وصولاً لأول فراغ، و هي وظيفة تحكمية مضافة لوظيفة تحريض القارئ على إنتاج المعنى و التواصل مع النص .

إن هذه البياضات لا تتوافر على أي مضمون محدد[٤٨]، كما أنها و إن كانت تتموقع في مفاصل العناصر النصية غير أنها الحافز الذي يدفع القارئ لفعاليات الربط و إيجاد العلاقات.

ثم إن إيزر يلتفت إلى نوع آخر من البياضات من زاوية حركية وجهة النظر الجوالة و فاعليتها، فيثبت لهذه البياضات الآتي :

أ- تتمثل وظيفة هذه البياضات بمراقبة حركة وجهة النظر الجوالة و السيطرة على فعاليتها و هو ما ينعكس على التحكم بأفعال الفهم المستندة إليها و يحد من الاعتباطية التأويلية .

ب- إن مكمن ظهور هذا النوع ضمن فاعلية حركة وجهة النظر الجوالة هو إحالة أفق المنظور المُدرَك إلى الواجهة الخلفية لاهتمام القارئ إبان اشتغاله على إدراك و تشكيل أفق المنظور الحالي[٤٩] .

إن أهمية مثل هذا النوع من الفراغات تظهر من وظيفتها التحكمية المسيطرة و المتداخلة مع حركية وجهة النظر الجوالة من أجل المزيد من دقة المنجز البنائي للمعنى .

سبق و أشرنا في موضع آخر أن العمل الأدبي يكسر المعايير المألوفة، و صورة من صور هذا الكسر يتم بخرق المعايير الأدبية التي ينتظر القارئ حضورها بناء على تجربته السابقة مع أعمال أدبية سابقة، إن الأسلوب جزء من تلك المعايير و له وسائله، و إن خرق معيار الأسلوب المألوف و غيابه عن مشهد النص الحالي يكسر أفق توقع القارئ، و ينتج عنه تشكل بياض نصي .

مجلة آداب البصرة للعلوم الإنسانية
العدد ٢ - المجلد ٤٧ - حزيران لسنة ٢٠٢٢

إن كل ما تقدم من حديث عن البياضات إنما يجسد العمليات المتلاحقة لفعل إنتاج المعنى و سيرورة القراءة في مستواها التعاقبي، و قد التفت إيزر إلى نوع آخر من البياضات يؤكد حضوره على المستوى التزامني لها، و يقوم هذا النوع على مفهوم (السلب أو النفي)، إذ يشوه النص الأنساق التي ترد في عناصر السجل النصي و هذا التشويه هو ما يقصد به إيزر (السلب أو النفي) إذ يؤدي إلى سلبها و نفيها، إن البياض النصي هنا ينتج بفعل تحكم النص من خلال فعاليات عناصر السجل النصي و الاستراتيجيات النصية في توجيه معنى السلب، ما يمنح القارئ إمكانات تشكيل دلالة هذا السلب على المحور التزامني لسيرورة القراءة و بناء المعنى، و لأن ((البياضات الناجمة عن السلب تبنى بكيفية مسبقة، من خلال معايير السجل النصي، الفضاءات الافتراضية للموضوع الجمالي))[٥٠]فافتراض وجود صيغة مسبقة للموضوع الذي سيحاول القارئ تصوره و إدراكه داخل هذا البياض مفروغ من صحتها، لكنه سيكون محدداً ((بكيفية مسبقة داخل النص ، و لكن كنقص و ليس كتحديد))[٥١].

تتمثل الأهمية الوظيفية للاشتغال على ملء البياضات في محوري التزامن و التعاقب في ممكنات التركيب و الاستبدال، إذ تتكفل البياضات في المحور الأول بضبط الناتج التأويلي للقارئ عبر تقنين ممارسة الاقتصاد في الاحتمال و حصر الممكنات الدلالية، في حين يتكفل المحور الثاني برسم خارطة تعاقب المنظورات على مسار القراءة و ضبط فعاليات التركيب.

إن نفي الأنساق لم يتوقف في معالجات إيزر السابقة على النص، بل تجاوزت نتائجه إلى الذات القارئة كما عرفنا، لتغير وجهات نظره و تعيد صياغة معاييره، من هذه الزاوية ينظر إيزر لنوع آخر من النفي يطلق عليه اسم (النفي الثانوي) و يقصد به النفي ((الذي يمارسه القارئ على ذاته أو على مقارباته الخاصة))[٥٢]، و الفرق بين هذا النوع من النفي و النوع السابق منه أن الثاني مرسوم في البنية الموضوعية للنفي داخل النص بينما هذا النوع ناتج عن فعل التلقي، بعد أن نجح العمل الأدبي في التأثير و جعل القارئ يتبنى وجهة نظره، و لعل النفي الثانوي يكتسب أهمية موازية لأهمية المسافة الجمالية لدى ياوس إذ يعده إيزر مفهوماً صالحاً لقياس جودة العمل الأدبي، فكلما وفر العمل الأدبي استعمالات أكثر لهذا النفي صار أجود .

الخاتمة

من خلال ما تقدم يمكننا استنتاج الآتي:

١- إن تصورات إيزر يمكن فهمها بدقة من خلال ربطها بالتصورات الفينومينولوجية لإنغاردن، إذ تمثل الأخيرة الجذر الفلسفي الذي انطلق منه الأول.

٢- إن المشروع النقدي لإيزر تمثل في جمالية التأثير، و توزع داخل زوايا منها: إنتاج المعنى، و القارئ، و علاقة النص بالقارئ، و طبيعة القراءة .

٣- و لإيضاح علاقة القارئ بالنص ابتكر إيزر (القارئ الضمني) بوصفه مفهوماً إجرائياً لهذه العلاقة.

٤- كما ابتكر إيزر (النموذج الوظيفي التاريخي) بوصفه المفهوم الإجرائي لعلاقة النص بالعالم الواقعي.

٥- مضافاً لما تقدم ابتكر إيزر (وجهة النظر الجوالة) لتكون المفهوم الإجرائي القادر على وصف سيرورة القراءة و بنيتها المفترضة.

الهوامش

(١) ينظر: الخبرة الجمالية – دراسة في فلسفة الجمال الظاهراتية، سعيد توفيق، المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر و التوزيع،بيروت، ط ١، ١٩٩٢: ٤١٠ .

(٢) ينظر: تاريخ الفلسفة الحديثة، يوسف كرم، كلمات عربية للترجمة و النشر، القاهرة، مصر، د.ط، د.ت : ٤٨٤-٤٨٥ .

(٣)من فلسفات التأويل إلى نظريات القراءة ــ دراسة تحليلية نقدية في النظريات الغربية الحديثة، عبد الكريم شرفي، الدار العربية للعلوم ــ ناشرون، لبنان، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط ١، ٢٠٠٧: ١٧٩ .

(٤) ينظر: العمل الفني الأدبي، رومان إنجردن، ترجمة د . أبو العيد دودو، منشورات مخبر الترجمة و المصطلح، جامعة الجزائر، ٢٠٠٧: ٦٢ .

(٥) من فلسفات التأويل إلى نظريات القراءة: ١٨٢ .

(٦) ينظر: فعل القراءة ــ نظرية جمالية التجاوب في الأدب ، فولفغانغ إيزر ، ترجمة حميد لحميداني و الجيلاي الكدية، مكتبة المناهل، فاس ، د . ط ، د . ت: ٥٥ .

(٧) ينظر: م . ن: ٧٦ .

(٨) ينظر: نظرية التلقي بين ياوس و إيزر، د.عبد الناصر حسن محمد، دار النهضة العربية، القاهرة، مصر، د.ط،٢٠٠٢ : ٣٤-٣٥ .

(٩) ينظر: الفينومينولوجيا و سؤال المنهج عند هوسرل، عبد القادر بودومة، أطروحة دكتوراه، كلية العلوم الاجتماعية – قسم الفلسفة، جامعة ألسانيا – وهران، الجزائر ، ٢٠٠٨-٢٠٠٩: ٣٧ .

(١٠) ينظر: تأثير جمالية التلقي الألمانية في النقد العربي: ١٨ .

(١١) ينظر: النظرية الأدبية و مفهوم أفق التوقع، السيد إبراهيم، مجلة علامات، العدد ٣٢، ١٩٩٩: ١٨٤ .

(١٢) ينظر: الوقع الجمالي و آليات الوقع عند وولف غانغ إيزر ، مجلة دراسات سيميائية أدبية لسانية، العدد ٦، ١٩٩٢: ٥٣

(١٣) ينظر: القراءة و التأويل ــ بين أومبرتو إيكو و فولفغانغ إيزر، المصطفى عمراني، مجلة فكر ونقد، العدد ٦٧، ٢٠٠٥: ٧١ .

(١٤) ينظر: من فلسفات التأويل إلى نظريات القراءة: ٢١٥.

(١٥)تنسب (سوزان روبين سليمان) مفهوم القارئ الضمني لـــــ (وين بوث) و ترى أنه من مبتكراته، ينظر: مقدمة تنوعات النقد الموجه إلى الجمهور،سوزان روبين سليمان، ضمن كتاب القارئ في النص مقالات في الجمهور و التأويل، تحرير سوزان روبين سليمان و إنجيكروسمان، ترجمة د. حسن ناظم و علي حاكم صالح، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠٧: ٢١.

(١٦) ينظر: جماليات التلقي، سامي إسماعيل، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، مصر، ط ١، ٢٠٠٢: ١٢٤.

(١٧) ينظر: م.ن : ١٢٥ .

(١٨) ينظر: معجم مصطلحات نقد الرواية، د. لطيف زيتوني، مكتبة لبنان ناشرون، دار النهار للنشر، بيروت، لبنان، ط ١، ٢٠٠٢ : ١٣٢ .

(١٩) ينظر: فعل القراءة ــ نظرية جمالية التجاوب في الأدب: ٣٤ .

(٢٠) ينظر: البعد التطهيري الاتصالي في شعر محمود درويش ـــــ ديوان لا تعتذر عما فعلت أنموذجاً، عبد الله بوسيف، رسالة ماجستير، كلية الآداب و اللغات – قسم اللغة العربية، جامعة محمد خيضر ـــــ بسكرة، الجزائر، ٢٠١١-٢٠١٢: ٨٩ .

(٢١) فعل القراءة ــ نظرية جمالية التجاوب في الأدب: ٢٧ .

(٢٢) ينظر:الأصول المعرفية لنظرية التلقي، ناظم عودة خضر، دار الشروق للنشر و التوزيع، عمان ــ الأردن، ط ١، ١٩٩٧: ١٦٢

(٢٣) ينظر: فعل القراءة ــ نظرية جمالية التجاوب في الأدب: ٢٩-٣٠ .

(٢٤) من فلسفات التأويل إلى نظريات القراءة: ١٩٠ .

(٢٥) ينظر : المقامات و التلقي- بحث في أنماط التلقي لمقامات الهمذاني في النقد العربي الحديث، نادر كاظم، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، بيروت، لبنان، ط ١، ٢٠٠٣: ٢٦ .

(٢٦) هذا المفهوم مستورد من نظرية الأنساق العامة، للاستزادة ينظر: من فلسفات التأويل إلى نظريات القراءة:١٩٣ .

(٢٧) من فلسفات التأويل إلى نظريات القراءة: ١٩٢ .

(٢٨) آفاق نقد استجابة القارئ، فولفكانك إيزر، ترجمة أحمد بو حسن، ضمن: من قضايا التلقي و التأويل، منشورات كلية الآداب و العلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة ندوات و مناظرات رقم ٣٦، الدار البيضاء، ١٩٩٥ :٢١٣ .

(٢٩)نظرية التلقي ــ مقدمة نقدية، روبرت هولب، ترجمة عز الدين إسماعيل، المكتبة الأكاديمية، عربية للطباعة و النشر، القاهرة، مصر، ط١، ٢٠٠٠: ٢٠٨ .

(٣٠) ينظر: فعل القراءة: ٥٧ .

(٣١) ينظر: من فلسفات التأويل إلى نظريات القراءة: ١٩٤ .

(٣٢) مفهوم أخذه إيزر من نظرية الأشكال (الجشتالت)، للاستزادة ينظر: من فلسفات التأويل إلى نظريات القراءة:١٩٣.

(٣٣) من فلسفات التأويل إلى نظريات القراءة: ٢٠١ .

(٣٤) ينظر: القراءة، فانسون جوف، ترجمة بديار البشير، مجلة الآداب و اللغات، كلية الآداب و اللغات، الأغواط، الجزائر، العدد ١٥، ٢٠١٥: ٧٩-٨٠ .

(٣٥) ينظر: من فلسفات التأويل إلى نظريات القراءة: ٢٠٣ .

(٣٦) أخذ إيزر مفهومي الموضوع و الأفق من (ألفرد شوتس) و وظفهما لتأسيس هذه البنية، ينظر: نظرية التلقي – مقدمة نقدية: ١٤٢ .

(٣٧) ينظر: من فلسفات التأويل إلى نظريات القراءة: ٢٠٤ .

مجلة آداب البصرة للعلوم الإنسانية
العدد ٢ – المجلد ٤٧ – حزيران لسنة ٢٠٢٢

(٣٨) ينظر: فعل القراءة– نظرية جمالية التجاوب في الأدب: ١٢ .

(٣٩) ينظر: الفينومينولوجيا و فن التأويل، محمد شوقي الزين، مجلة فكر و نقد، العدد ١٦، فبراير، ١٩٩٩ : ٧٤ .

(٤٠) ينظر: إشكالية التلقي في أعمال كاتب ياسين، كريمة بلخامسة، أطروحة دكتوراه، كلية الآداب و اللغات – قسم الأدب العربي، جامعة مولود معمري تيزي وزو: ٣٥ .

(٤١) ينظر: نظرية التلقي، محمد عزام، مجلة البيان الكويتية، العدد ٣٣٠، الكويت، يناير، ١٩٩٨: ٤٣ .

(٤٢) ينظر: فعل القراءة– نظرية جمالية التجاوب في الأدب: ٩٤– ٩٥ .

(٤٣) ينظر: م . ن : ٩٦–٩٨ .

(٤٤) م . ن : ٩٨ .

(٤٥) ينظر: م . ن : ١٠٢ .

(٤٦) ينظر: م . ن :١١٣ .

(٤٧) ينظر: م . ن :١٠١ .

(٤٨) ينظر: قراءة الآخر / قراءة الأنا – نظرية التلقي و تطبيقاتها في النقد الأدبي العربي المعاصر، حسن عز الدين البنا، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، مصر، ط ١، ٢٠٠٨: ٤٤ .

(٤٩) ينظر: من فلسفات التأويل إلى نظريات القراءة:٢٢٧ .

(٥٠) م . ن : ٢٣١ .

(٥١) المكان نفسه .

(٥٢) م . ن : ٢٣٢ .

المصادر و المراجع

١. إشكالية التلقي في أعمال كاتب ياسين، كريمة بلخامسة، أطروحة دكتوراه، كلية الآداب و اللغات – قسم الأدب العربي، جامعة مولود معمري تيزي وزو.

٢. الأصول المعرفية لنظرية التلقي، ناظم عودة خضر، دار الشروق للنشر و التوزيع، عمان ــ الأردن، ط ١، ١٩٩٧.

٣. آفاق نقد استجابة القارئ، فولفكانك إيزر، ترجمة أحمد بو حسن، ضمن: من قضايا التلقي و التأويل، منشورات كلية الآداب و العلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة ندوات و مناظرات رقم ٣٦، الدار البيضاء، ١٩٩٥.

٤. البعد التطهيري الاتصالي في شعر محمود درويش ـــ ديوان لا تعتذر عما فعلت أنموذجاً، عبد الله بوسيف، رسالة ماجستير، كلية الآداب و اللغات – قسم اللغة العربية، جامعة محمد خيضر ـــ بسكرة، الجزائر، ٢٠١١–٢٠١٢.

٥. تاريخ الفلسفة الحديثة، يوسف كرم، كلمات عربية للترجمة و النشر، القاهرة، مصر، د.ط، د.ت.

٦. جماليات التلقي، سامي إسماعيل، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، مصر، ط ١، ٢٠٠٢.

٧. الخبرة الجمالية – دراسة في فلسفة الجمال الظاهراتية، سعيد توفيق، المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر و التوزيع،بيروت، ط ١، ١٩٩٢.

مجلة آداب البصرة للعلوم الإنسانية
العدد ٢ – المجلد ٤٧ – حزيران لسنة ٢٠٢٢

٨. العمل الفني الأدبي، رومان إنجردن، ترجمة د . أبو العيد دودو، منشورات مخبر الترجمة و المصطلح، جامعة الجزائر، ٢٠٠٧.
٩. فعل القراءة ـــ نظرية جمالية التجاوب في الأدب ، فولفغانغ إيزر ، ترجمة حميد لحميداني و الجيلاي الكدية، مكتبة المناهل، فاس ، د . ط ، د . ت.
١٠. الفينومينولوجيا و سؤال المنهج عند هوسرل، عبد القادر بودومة، أطروحة دكتوراه، كلية العلوم الاجتماعية – قسم الفلسفة، جامعة ألسانيا – وهران، الجزائر ، ٢٠٠٨-٢٠٠٩.
١١. الفينومينولوجيا و فن التأويل، محمد شوقي الزين، مجلة فكر و نقد، العدد ١٦، فبراير، ١٩٩٩.
١٢. القارئ في النص مقالات في الجمهور و التأويل، تحرير سوزان روبين سليمان و إنجي كروسمان، ترجمة د. حسن ناظم و علي حاكم صالح، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠٧.
١٣. قراءة الآخر / قراءة الأنا – نظرية التلقي و تطبيقاتها في النقد الأدبي العربي المعاصر، حسن عز الدين البنا، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، مصر، ط ١، ٢٠٠٨.
١٤. القراءة و التأويل ـــ بين أومبرتو إيكو و فولفغانغ إيزر، المصطفى عمراني، مجلة فكر ونقد، العدد ٦٧، ٢٠٠٥.
١٥. القراءة، فانسون جوف، ترجمة بديار البشير، مجلة الآداب و اللغات، كلية الآداب و اللغات، الأغواط، الجزائر، العدد ١٥، ٢٠١٥.
١٦. معجم مصطلحات نقد الرواية، د. لطيف زيتوني، مكتبة لبنان ناشرون، دار النهار للنشر، بيروت، لبنان، ط ١، ٢٠٠٢.
١٧. المقامات و التلقي– بحث في أنماط التلقي لمقامات الهمذاني في النقد العربي الحديث، نادر كاظم، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، بيروت، لبنان، ط ١، ٢٠٠٣.
١٨. من فلسفات التأويل إلى نظريات القراءة ـــ دراسة تحليلية نقدية في النظريات الغربية الحديثة، عبد الكريم شرفي، الدار العربية للعلوم ـــ ناشرون، لبنان، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط ١، ٢٠٠٧.
١٩. النظرية الأدبية و مفهوم أفق التوقع، السيد إبراهيم، مجلة علامات، العدد ٣٢، ١٩٩٩.
٢٠. نظرية التلقي ـــ مقدمة نقدية، روبرت هولب، ترجمة عز الدين إسماعيل، المكتبة الأكاديمية، عربية للطباعة و النشر، القاهرة، مصر، ط١، ٢٠٠٠.
٢١. نظرية التلقي بين ياوس و إيزر، د.عبد الناصر حسن محمد، دار النهضة العربية، القاهرة، مصر، د.ط،٢٠٠٢.
٢٢. نظرية التلقي، محمد عزام، مجلة البيان الكويتية، العدد ٣٣٠، الكويت، يناير، ١٩٩٨.
٢٣. الوقع الجمالي و آليات الوقع عند وولف غانغ إيزر ، مجلة دراسات سيميائية أدبية لسانية، العدد ٦، ١٩٩٢.

مجلة آداب البصرة للعلوم الإنسانية
العدد ٢ – المجلد ٤٧ – حزيران لسنة ٢٠٢٢